مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

# التصوف والحداثة في دول المغرب العربي

الكتاب الرابع و الستون أبريل (نيسان) 2012
كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

# الزاوية الشرقاوية أثرها في الماضي والحاضر

عبد الهادي أعراب(*)

**«لا يمكن فهم خلفيات الزوايا ومعتقداتها إلا إذا استبعدنا عن ذهننا الحالة اليومية التي نشاهد عليها الناس في العصر الراهن»[1]، هذه الكلمة البليغة مفتاح لما سنقوله في شأن الزاوية الشرقية.**

---

(*) استاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة المغرب.

(1) مارك بلوخ عن: ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ترجمة : محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، ط I 1989 ص 48.

لئن كانت الزاوية لغة، ركنا من المكان بما يحيل عليه الفعل انزوى، الدال على الانعزال والانفراد، فهي تحمل أيضا معنى الجمع والضم، من زَوى الشيء بمعنى جمعه. إنه المعنى الذي سوف نعتمده في بحثنا للأثر الاجتماعي لتصوف الزاوية الشرقاوية وأدوارها بين الماضي والحاضر. فقد ظلت هذه الزاوية بالفعل تجسد مجالاً ضاماً جامعاً، يؤطر حياة الأفراد ويؤثر في معاشهم بأقصى المناطق وأنآها عن المراكز الحضرية والعلمية. يتعلق الأمر بفضاء للتثقيف الديني الصوفي والأدبي والفكري، يرتبط بسلالة من المرابطين أو الصلحاء المتمتعين بقدر من الورع والصّلاح[2].

تعرف الزاوية كذلك، بـ «مسجد وقبة على ضريح المرابط المنسوبة إليه، ومحل يقرأ فيه القرآن، وآخر تدرس فيه العلوم وثالث لتعليم الصغار، ومنزل للطلبة الذين يريدون إتمام دروسهم حتى يصيروا أهلاً للتدريس أو نيابة للقضاء»[3]. كما تحوي «منزلا للفقراء والمسافرين، وقد يكون فيها مقبرة لأهل الصلاح القاصدين مجاورة قبورهم لقبور المرابطين والأساتذة في الزوايا والمرابطون أنفسهم»[4]. وعلى امتداد تاريخ المغرب العميق، استأنفت دور الرباطات التي ميزت فترة الفتح الإسلامي، من حيث هي أمكنة تجمع فيها المجاهدون والصالحون والمؤمنون العبدة الثقاة والمتفقهون في أمور الدين، فزاوجت بين التعبد والإطعام والإيواء، وبين الجهاد والدفاع عن الأمة ضد ما يهددها من الأخطار[5]. كما ظلت لصيقة بالحياة الاجتماعية والسياسية للسكان تثقيفا وإشعاعا؛ وشكلت دعما وسندا لوصول قوى للحكم أو ضد أخرى في بلوغه وممارسته.

---

(2) في سياق تحليل الأرصدة الرمزية لشيوخ الزوايا، لا يمكن التعامل مع مفهوم الصلاح بمفصل عن البركة كقدرة خفية على إنجاز خوارق وأفعال مفارقة، تتعلق بالأولياء والمجذوبين أصحاب الكرامات، أولئك المقربين من الحضرة الإلهي، فالشخص الممتلك للبركة، يمتلك في أعين الناس صفة «الولي» من حيث هو شخص «فوق – طبيعي» بمقدوره تحقيق إنجازات مفارقة وعجيبة ، انظر:
Edward Westermarck. Les Survivances Païennes dans la Civilisation Mahometane. Payot. Paris. 1935 ، p. 149. Voir aussi : R. Jamous. Honneur et Baraka : Les structures Sociales Traditionnelles dans le Rif. éd. de la Maison des Sciences de l›homme. 1981، p. 202.

(3) المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، الجزء التاسع، دار المعرفة، بيروت، (د- ت)، ص 161.

(4) المرجع نفسه، ص 161-162.

(5) دخل الإسلام المغرب عبر مراحل ثلاثة: الأولى مرحلة الأسلمة واتخذت شكل مواجهة مباشرة وغزوات امتدت ما بين القرن الأول إلى حدود الثاني عشر للهجرة، أما الثانية فهي مرحلة تنظيم إداري للتراب المؤسلم أو الذي تمت أسلمته نسبيا، والثالثة كانت حاسمة من حيث الصراع والمقاومة التي وجهت ضد الأطماع الخارجية في عهد المرينيين وعرفت باسم «الدفاع عن الثغور» ضد المسحيين. فيها لعبت الزوايا دورا كبيرا وقويا في الحروب التي اتخذت طابعا قداسيا ضد الغزو الخارجي الصليبي:

من هنا، عدّت بحق إحدى مكونات الذهنية المغربية المتجذرة في تربة المجتمع المغربي لفترات طويلة من تاريخه.

يبقى أن نتساءل: إلى أي حد استطاعت هذه الزاوية المحافظة اليوم على مجمل أدوارها الاجتماعية والثقافية والدينية الصوفية؟ ما هي أهم التحولات التي مست إشعاعها الصوفي والفكري لفائدة السكان والزوار والأتباع والمريدين على حد سواء؟ كيف يمكننا اليوم رسم صورة لموقع إحدى زوايا وسط المغرب، من خلال طبيعة وحجم علاقتها ب «زبائنها الدينيين»، وقوفا عند نفوذها الرمزي داخل فضائها الجغرافي المحلي بدرجة أولى والجهوي والوطني بدرجة لاحقة ؟

## الزاوية الشرقاوية وأدوارها الكبرى في الماضي

### ورقة تعريف

اشتهرت زاوية «أبي الجعد» [6] بإشعاعها العلمي الصوفي منذ القرن(16م)؛ لما تأسست على يد «أبي عبد الله محمد الشرقي «المعروف محليا بـ «سيدي بوعبيد الشرقي»[7]. يؤكد الناصري أهميتها في استقصائه قائلا: «الزاوية الشرقاوية من أشهر زوايا المغرب، ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب. تداولها منذ أزمان أكابر، ورثوا مقام الولاية والرياضة بها كابرا عن كابر، فقد عرف لهم ذلك السوقة والملوك والغني والصعلوك، ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرها تعاملهم بالإجلال والإعظام والتوقير والاحترام»[8]. رافق تأسيسها فترات حاسمة من تاريخ التصوف وتاريخ المغرب على نحو عام، منها الهجوم الصليبي الذي استهدف معالم البلاد الحضارية ومقدساتها

(6) وهي أول مركز حضري بسهل تادلا وبمنطقة ورديغة/إقليم خريبكة حاليا، منذ تأسيسها في القرن 16م إلى بداية الحماية الفرنسية، وقد ضمت ساكنة متنوعة مابين ذرية الشيخ المؤسس (شرقاوة) وعبيدهم وتجار وحرفيين ....، إضافة إلى جالية مهمة من اليهود . أنظر التفاصيل: ديل أيكلمان الإسلام في المغرب، الجزء الأول، م.س.ذ، ص48 .

(7) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية زاوية أبي الجعد إشعاعها الديني والعلمي، الجزء الأول،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 1985، ص، 183.

(8) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، كتاب الاستقصا أخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثالث، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، تحقيق: أحمد الناصري، 2001 ص 78.

وهدد كيانها[9]. في هذا السياق استحالت - بفضل جهود شيوخها وكافة القوى الحية بالمغرب- إلى قلاع وحصون للجهاد والدفاع عن شعلة الإسلام ضد الخطر المسيحي[10].

أما عن شخصية الشيخ المؤسس فهو أبو عبد الله محمد المدعو الشرقي بن الشيخ أبي القاسم، المعروف بالزعري الجابري الرثمي، يمتد نسبه إلى عمر بن الخطاب[11]؛ استوطن قبيلة بني جابر الموجودة بمنطقة تادلا[12] التي تخضع اليوم لإقليم خريبكة[13] على الهضبة الفوسفاتية المشهورة بهضبة ورديغة نسبة لقبائل ورديغة إحدى بطون بني جابر[14]، في إطار الهجرات الهلالية العربية خلال القرن(12م) وما يليه كمرحلة أولى؛ بينما تشير بعض المصادر إلى وصولهم منطقة أبي الجعد في حدود القرن(14م)[15]. ونظرا لأهمية النسب المشرقي، الذي ينتمي إليه الشيخ، فإن الزاوية حرصت على توظيفه واستثماره مستقطبة أعدادا غفيرة من الأتباع للتأثير في محيطها المحلي والجهوي والإقليمي والوطني على نحو عام[16].

نشأ الشيخ في بيئة صلاح صوفي ونفوذ روحي امتد على تراب تادلا، شأن جده الشيخ محمد الزعري الذي عرف بالصلاح والتقوى، وكذا أبيه الشيخ «أبي القاسم»؛

---

(9) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 38.

(10) في نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20، عاد خطاب الجهاد الصوفي بقوة ليس بالمغرب الأقصى فقط، بل بسائر منطقة شمال إفريقيا؛ وهنا مرة أخرى لعبت بعض الزوايا والحركات الصوفية في المغرب كما في الجزائر أدوارا طلائعية، من خلال تعبئة الأفراد ودعوتهم للقتال المنظم في شكل جماعات، وتعزيز صورة المعمر كمسيحي يستهدف الدين قبل الأرض؛ أنظر: جوليا كلاني سميت، «الأولياء والمهديون والحرب: الدين والمقاومة في القرن التاسع عشر في شمال إفريقيا»: ادموند بيرك وإيرا لابيدوس، الإسلام والسياسة والحركات الاجتماعية، ترجمة: محروس سليمان، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999 الصفحات: 98 و99 و100.

(11) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 43.

(12) عبد الرحيم الورديغي، تاريخ ورديغة وأخبارها البليغة(601هـ___1193/1423___2002 م)، فيديرانت، ط1، الرباط ، ص، 11.

(13) يحتضن إقليم خريبكة بالعديد من قراه إلى اليوم، أسرا من ذرية الشيخ سيدي محمد الشرقي،كذرية أخيه المدعو سيدي عبد العزيز، دفين «واد زم»، أو ابن عمه سيدي عبد النبي الذي يوجد أحفاده «بجماعة الفقرا» ويعرفون «بالنبّاويين»؛ انتقلوا إلى قبيلة أولاد بحر الصغار واستقروا بجنوبها الغربي وسموا أو سموا أنفسهم «الفقرا مالين الغراف، نسبة إلى منخفض «بلغراف» الذي يقع بجوار واد يمر وسط الجماعة. ونشير أنه أثناء زيارتنا الميدانية لهذه الجماعة، صادفنا عددا من القرويين يمتلكون شجيرات نسب تمتد إلى عمر بن الخطاب.

(14) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 44.

(15) المرجع نفسه، ص 48.

(16) أنظر عمود النسب الذي أورده أحمد بوكاري ، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص، 50.

وإلى جانب صلاح الأب والجد[17] أخذ عن كبير شيوخ الطريقة الجزولية «عبد العزيز التبّاع»، بل توسع في مصادرها وأسانيدها كالشيخ عبد الله بن ساسي تلميذ أبي محمد الغزاوي تلميذ عبد العزيز التبّاع الجزولي»، أو مثل الشيخ «أبي عبد الله محمد بن عمر المختاري»، أو الشيخ «محمد بن امبارك الزعري[18] بناء على هذا الرصيد الرمزي، أصبح الولي المنظم والمتصرف في مجال نفوذه والمراكم لمجموعة من الرموز القداسية وحاملها لمن سيأتي من بعده أو يخلف ولايته في سياق نماذج من الفعل المأسس والمطقسن تؤطره قوالب اجتماعية خاصة[19]؛ فقد صار هو رجل النظام والمحافظة؛ وبالنظر إلى طبيعة كاريزمه الديني، حاز شرعية واضحة طبعت مختلف سلوكاته الاجتماعية اليومية والسياسية والتنظيمية أيضا[20].

عدّ زمن الشيخ المؤسس بحق، بالرغم من كل القلائل والاضطرابات، فترة قمة النشاط الصوفي بالمغرب سواء في إطاره النظري العلمي أو في جانبه العملي ممثلا في الجهاد وجمع شتات الأمة[21]؛ إذ استطاعت زاويته الجديدة ملء فراغ كبير بالمنطقة، سيما بعد اختفاء كل من الشيخ سيدي علي بن إبراهيم وسيدي أمسناو، وبعدهما الشيخ بن القاسم[22]. وباستحضار أهمية منطقة أبي الجعد كهمزة وصل بين مراكش وفاس، وبين برابر الأطلس وسكان البسيط من العرب، وبين الرحل والمستقرين، ندرك أهمية الموقع الذي اختير موطنا للزاوية؛ وإن كانت بعض المصادر تذكر أن تأسيسها، لم يتم دون تشجيع من الجهات الرسمية، وذلك في «محاولة لخلق قطب تصوف جهوي في المنطقة الوسطى من البلاد»[23]؛ و لعله الأمر الذي يفسر لنا الصراع الذي لقيته الزاوية من قبل

---

(17) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول ،م.س.ذ ، ص، 53.

(18) يميل الباحث أحمد بوكاري إلى التأكيد على أن الزاوية الشرقاوية، مثلت إضافة مهمة للطريقة الجزولية، وهي الطريقة التي عرف عنها واقعيتها وتلونها بالبيئة المغربية والتعبير عن معاناتها أصدق ما يكون التعبير - بعيدا عن الغلو والتطرف، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول،م.س.ذ ، ص، 62.

(19) Hassan El Boudrari، Quant les Saints font les Villes. Lecture Anthropologique de la Pratique Sociale d'un Saint Marocain du XVII Siècle » : Annales. Economie. Sociétés Civilisations. n° : 3. Mai – Juin. 1985 .p.504.

(20) ibid. .p.504.

(21) المرجع نفسه، ص 62.

(22) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول ،م.س.ذ ، ص، 70.

(23) المرجع نفسه، ص، 74.

صلحاء الدير بالنظر إلى حيوية موقعها وأهميته.

من جهة أخرى، يحمل اختيار هذا الفضاء الجذب دلالة مرتبطة بأدوار ووظائف الزوايا بالمغرب، ونقصد تحديدا الإيواء والإطعام والحماية. غير أن هذا المعطى المحلي، لا يوجد مفصولا عن سيناريوياهات تأسيس الزوايا بالمغرب، بمناطق تكون فيها الطبيعة قاسية و شاحة، مثلما حصل بأرضأبي الجعد؛ فقد أعلن الشيخ عزمه على تأسيس زاويته بمنطقة شبه حارة مرددا مقولته المشهورة: «إني راحل إن شاء الله إلى بلد أمورها في الظاهر معسرة وأرزاقها ميسرة»[24]، مما أهلها لتأمين حاجيات الزوار والرواد والخدام والأتباع[25]، ولئن كان عدد مهم من الصلحاء والأولياء المجاورين استقروا على ضفاف الأودية، فإن سيدي محمد الشرقي أنجز هذا الاستثناء[26] باختياره منطقة أقل خصوبة وأشح ماء لمّا هو «نزل في الوطا بوادي أبي الجعد في الصحاري، فوجده خاليا لا ملك فيه لأحد إلا الملك المعبود وعمارته الذئاب والوحوش والأسود»[27]، فحفر الآبار وشرع في الاستيطان وأقام المساجد، ولمواجهة طابع الترحال، عمل على تشجيع الإعمار والبناء وإنشاء الأنشطة المختلفة، «فتحولت منطقة أبي الجعد من مجال فارغ مغمور إلى معلم من المعالم المشهورة بمنطقة تادلا وخارجها»[28] سيما بعد توافد الطوائف والركبان من كل جهات المغرب، بلغت شهرتها فاس ومراكش زمن أحمد المنصور الذهبي.

---

(24) المرجع نفسه، ص، 75.

(25) المرجع نفسه، ص، 75.

(26) بقراءتنا لهجيوغرافيات عدد من الأولياء المغاربة، يتكسر هذا الاستثناء، فعلى سبيل المثال نجد سيناريو اختيار أرض قفر خلاء تكرر مع الشريف مولاي عبد الله مؤسس الزاوية الوزانية، فبجلوله وحلول بركته، صارت هذه الرقعة الجبلية المقفرة جنة خضراء بها زرع وأشجار؛ من هنا يتحدث البعض عن «أولياء صانعي مدن» أنظر:

Hassan El Boudrari« Quant les Saints font les Villes. Lecture Anthropologique de la Pratique Sociale d'un Saint Marocain du XVII Siècle»: Annales. Economie. Sociétés Civilisations. n°: 3. Mai – Juin. 1985.P .495.

(27) محمد بن عبد الكريم العبدوني، يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي، مخطوط بالخزانة العامة، رقم 305 ك، ص 140.

(28) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول ،م.س.ذ ، ص، 78.

## الدور العلمي والتعليمي بالزاوية

مع التراجع الملحوظ، للمدارس الدينية بالمغرب[29]، برزت الزوايا بديلا للرباطات التي مارست دور الجهاد سيما بالسواحل، واضطلعت بمهام التعليم والتدريس[30]، على أن ما ميز التعلم بها هو التعرف على أمهات الكتب سواء في النحو أو الفقه أو التصوف، على يد فقهاء لهم إلمام كبير بعلوم القراءات والعلوم الشرعية والعلوم اللغوية[31]. وفي مناطق خاصة كسوس مثلا ، اعتمدت الدراسة على استنساخ الكتب المهمة، أمام غياب إمكانية شرائها أو استعارتها[32]، وهي مرحلة متقدمة من التعلم مقارنة مع المدارس الدينية التي تقتصر الدراسة فيها عادة، على الحفظ القرآني والكتابة على الألواح.

لقد مثل التعلم بالزوايا محطة أساسية بالنسبة لطلاب العلم الديني، ولأنه غير متاح للجميع[33]، عدّ المتعلم بها من المحظوظين الذين أنعم الله عليهم بإتمام تكوينهم الديني على يد شيوخ متمكنين وبفضاء له هيبته وقدسيته. كما مثلت في مستوى آخر، مدرسة شاملة للراغب في حفظ القرآن وتحفيظه اشتغالا بمهنة الشرط[34]؛ ففيها يأخذ

---

(29) تعتبر المدارس الدينية مؤسسات ملحقة بالزوايا والجوامع الكبرى، تقدم تكوينا علميا ودينيا مختلفا ومتقدما عما يقدمه الكتّاب، تنتشر بمناطق كثيرة من المغرب أهمها جبالة وسوس التي أحصى بها المختار السوسي أزيد من مائة مدرسة(المختار السوسي، مدارس سوس العتيقة، م.س. ذ، ص. 93 – 135. والمعسول، الجزء الأول، ص 16). تاريخيا ارتبطت هذه المدارس بالدولة المرينية، إلا أن أولها وأشهرها تأسست مع المرابطين وهي مدرسة «أكلو» قرب تزنيت، على يد وجاج بن زلو : إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، مطبعة دار السلمى، البيضاء 1965 ص 243. ففي عهد المرينيين تعددت هذه المدارس وكان الإشراف عليها من اختصاص القاضي، أما تسيير شؤون الطلبة فكان من مهام «مقدم الطلبة» الذي يخضع بدوره لمراقبة القاضي، وكان لكل مدرسة مسجد راتب إمامه من الطلبة وغيرهم، وتتوصل المدرسة بهدايا كثيرة من المحسنين : إبراهيم حركات، المغرب عبد التاريخ، الجزء الثاني، دار الرشاد الحديثة، ط III البيضاء 1993 ص 133.

(30) إسكان الحسين: «جوانب من تاريخ التعليم بالمغرب الوسيط، 7 هـ / 13م إلى القرن 9 هـ / 15 م «رسالة لنيل د. د. ع، (تاريخ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987 – 1988 ص 83.

(31) أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إنولتان (1850 – 1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أطروحات ورسائل، الطبعة الثانية، 1983، ص. 111.

(32) المختار السوسي، المعسول، الجزء الأول، ص 194.

(33) نعتبر مرحلة التعلم بالزوايا، مفترق طرق بين فئة «فقهاء الشرط» وفئة العلماء ممن استطاعوا مواصلة تعليمهم الديني بالجوامع الكبرى كابن يوسف بمراكش أو القرويين بفاس، لذلك مثلت الزوايا العتبة النهائية بالنسبة لفقهاء الصنف الأول، ممن يكتفون بالعيش في البوادي والعمل بها : ديل أيكلمان، المعرفة والسلطة، ص 110.

(34) المقصود هنا «فقهاء الشرط» أو«الطلبة» (بضم الطاء)، إنهم حاملو الثقافة الكتابية والشفوية معا وحفظة القرآن الكريم، يعملون كمدرسين وأئمة بناء على عقد خاص يعرف «بالشرط» يصبح الإطار القانوني- العرفي الذي ينظم عملهم ومهامهم بالبادية. للمزيد من

عن شيخ وفيها يمكن أن يحظى بمعرفة أسرار الممارسة السحرية التي ستمكنه فيما بعد من أن يصنع لنفسه مسارا مهنيا خاصا[35]، وربما قد تحوله إلى «فقيه ساحر» يستغني عن العمل بالشرط بالبوادي.[36] واستنادا إلى عملنا الميداني، ووفقا لما أكده الفقهاء الممارسون، فأهم خصائص تعلمهم بالزاوية، ذلك النفس الصوفي الذي ينضاف إلى حفظ القرآن ثم الانخراط في الطريقة وقراءة أذكارها وأورادها، إضافة إلى خصوصية التعامل بين الطالب و معلمه الشيخ، القائم على الاحترام والمهابة[37]. يقول (الفقيه العربي): «بالزاوية نكون داخل فضاء مختلف عن جامع الدوار أو عن جوامع السفارة..، فعوض الفقيه، هناك الشيخ الذي نهابه كثيرا ونستحيي منه ونقبّل يديه وكتفيه (..) داخل الزاوية أيضا، نكون بمعزل عن البدو العوام؛ فالمكان له حرمته وكل ما نطلبه يصل إلينا دون عناء السؤال، وكل شيء يحاط ببركة خاصة؛ بهذا المعنى، فالتعلم بها يضفي على تجربة الفقيه مسحة خاصة ويمنحه تميزا نوعيا على غيره من الفقهاء ممّن لم يتعلموا بها، أما إذا واصل تعليمه وحصل على الإجازة العلمية فلن ينتهي به المطاف إلى العمل بالشرط في البوادي، بل سيكون أكثر تأهلا لمناصب مهمة بالمخزن، كالحسبة والفتوى والإمامة والقضاء[38].

لهذا يعرف الفقيه الذي درس بالزاوية، بفقيه عالم أو فقيه الزاوية أو فقيه شارب من الزاوية، وكلها توصيفات تحمل دلالة التميز والتفوق؛ فالدراسة بها إذن،

---

التفاصيل حول هذه الفئة، أنظر عملنا الميداني الذي هو في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع: عبد الهادي أعراب «الفقيه كمؤسسة بالمجال القروي: دراسة لتغير مكانة وأدوار فقهاء الشرط بالمغرب، إقليم خريبكة نموذجا»، إشراف.د . المختار الهراس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة محمد الخامس – اكدال، الرباط، 2007.

(35) نؤكد أن احتضان الزاوية للفقهاء لم يكن ظاهرة خاصة تميز المغرب وحده، بل شملت بلدانا مغاربية مجاورة؛ ففي أوراس الجزائر تؤكد فاني كولونا أن زاوية سيدي عقبة مثلا كانت تستقبل مئات الفقهاء الشباب:
F. Colonna «Invisibles Défenses. à propos du Kuttab et d›un chapitre de Joseph Desparmet» : Pratiques Résistances Culturelles au Maghreb. éd. CNRS. Paris. 1992 . p. 39.

(36) عبد الهادي أعراب، المرجع السابق، ص 97 .

(37) في هذا السياق، يؤكد عبد الله حمودي، أن المريد يتخلى عن إرادته لصالح الشيخ، لتحصيل المعرفة والبركة التي ترتبط بها؛ فهو مضطر للمرور من تجربة معقدة منها الخدمة والشغل والرعاية والغذاء لصالح شيخه، في إطار ديني يستند إلى مفهوم «الهبة» والخضوع التام، إلى الحدود التي يتأنث فيها المريد وفقا للمقولة الصوفية المشهورة : كن عنده كالميت عند مغسل، يقلبه متى شاء وهو مطاوع، عبد الله حمودي، الشيخ والمريد، ص 128 و(هامش) ص 136.

(38) مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 26، 1995 ص 98.

تتويج رمزي لتكوين الفقيه-الطالب، سواء على المستوى العلمي والمعرفي أو على المستوى الأخلاقي ـــــ الصوفي؛ ولا غرابة في ذلك لأنها زاوجت بين الدور الديني بنشر التعاليم الإسلامية والدور العلمي بنشر التعليم، إضافة إلى التصوف الذي سعت إلى توسيع قاعدته بأوساط البوادي دون فصله عن المعرفة والعلم[39]، موفرة للمتعلمين فرصة تشرّب المبادئ الصوفية وسماع الأذكار وقراءة الأدعية والأوراد، فكل شيخ تحيط به جماعة من المريدين يعرفون باسم الفقراء[40]، لذا يصبح سلوك المتعلم بها، امتدادا لضوابط تنشئتها الروحية والدينية أو ما يعرف بـ الطريقة؛ فبفضل المواظبة على قراءة الأوراد والأدعية، يحافظ هذا المتعلم على حبال الوصل التي تربطه كمريد بشيخه وتعزز انتماءه الروحي إلى طريقة صوفية دون أخرى.

لم تشكل الدراسة بالزاوية الشرقاوية استثناء مقارنة بزوايا المغرب ومراكزه، إن على مستوى الشكل أو المضمون؛ غير أنه من الواضح أن الوسط القروي الذي تعاملت معه، أثر على طبيعة المضامين والمواد الملقنة دون أخرى؛ ومهما يكن فقد ظل النفس الروحي طاغيا على كل المحتويات خلال العصرين السعدي والعلوي[41]. أما بخصوص المواد المدرسة، فهي الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية كوسيلة لمعرفة الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن والحديث وأمهات الكتب، إلى جانب مادة التصوف علما وعملا[42]، والبلاغة والأدب وعلوم أخرى كالهيولة والتشريح والطب وعلم التوقيت والحساب وعلم التعبير وعلم التعديل والهندسة [43] دون أن نستثني علوما عملية أخرى مثل أساليب الزراعة والري عبرالخطّارات وإقامة المطاحن الخاصة بالحبوب والغلل المدارة بقوة الماء[44]. ولأجل تعزيز تعلم الطلبة وفرت الزاوية دعما لا يستهان به من مقام وإطعام، كما وفرت لفقهائهم وعلمائهم ومعلميهم أهم الشروط المحفزة للعمل والتدريس؛

---

(39) Ahmed Zouggari. l›Ecole en Milieu Rural. imp. El Maarif Al Jadida. Rabat. 1996.p.119

(40) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ص 37 – 38.

(41) لمعرفة تفاصيل طرق التدريس بالزاوية، أنظر: محمد بن عبد الكريم العبدوني، يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي، مخطوط بالخزانة العامة، رقم 305 ك، ص 2. وأحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 211.

(42) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 213.

(43) محمد بن عبد الكريم العبدوني، يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ المعطي، ص66. وأحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 218.

(44) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 219.

ومنعا للسآمة التي قد يصادفونها من اختلاف البيئة أو المحيط؛ بذلت مجهودا أكبر تمثل في الهبات والهدايا والإنعامات لتشجيع المقيمين من جهة وإغراء من يقيم بزوايا ومدن أخرى كما هو الشأن في التعامل الذي حظي به المؤرخ الافراني أو الفقيه الطبيب عبد القادر بن شقرون[45].

استأنفت الزاوية الشرقاوية نشاطها العلمي بعد فترة عصيبة من التوترات أعقبت وفاة الشيخ المؤسس، وأعيد تنظيم شؤونها من جديد متجاوزة الاضطرابات التي ميزت القرن (17م)[46]؛ ومن أهم حفدة الشيخ المؤسس،أبو عبد الله محمد المعطي الذي تعتبره المصادر وارث جده وخليفته ومجدد رسمه وطريقته؛ أكد ذلك شيخه «التاملي» بقوله :»أنت المعني ب: يأتي من أولادي من جريي هو مشيه»[47]. وكذلك الشيخ أبو عبد الله محمد الصالح، وأبو عبد الله محمد المعطي بن الصالح، صاحب كتاب «الدخيرة في السيرة النبوية»، والشيخ أبو عبد الله محمد العربي بن محمد المعطي.

## الأدوار الدينية

سار شيوخ الزاوية ورجالاتها مثلما أسلفنا، على نهج الطريقة الصوفية التبّاعية الجزولية، بدءا من الشيخ المؤسس الذي أخذ عن الشيخ التبّاع الجزولي طريقته الشاذلية المعروفة بالمغرب باعتدالها وقربها من الكتاب والسنة وبعدها عن كل مظاهر الغلو والتفلسف، لأن أصولها مستمدة من تصوف الجنيد[48]. يؤكد الشيخ محمد الشرقي هذا الانتماء في أرجوزته التي مطلعها:

اللّي بغى اتعنى ويكون منّا  اتبع طريق السّنّا يا بابا

وإلى جانب تدينه وتصوفه كان مربيا ومدرسا، عني بتدريس العلم الديني لأبنائه في مرحلة أولية وأرسلهم فيما بعد إلى فاس ومراكش لاستكمال تكوينهم الديني

(45) المرجع نفسه، ص 221و222.

(46) المرجع نفسه، ص 100.

(47) المرجع نفسه، ص 103.

(48) المرجع نفسه، ص 118.

تهيئوا لمساعدته في أداء مهام التدريس بمجالس وحلقات الزاوية[49]؛ كما هو حال ابنه محمد الغزواني المتخرج على يد كبار فقهاء عصره بفاس وأخيه محمد المكناسي العالم الورع، ممّا أهلهما لإتمام مسيرة الوالد بالزاوية[50].

تجمع المصادر على أن النشاط الصوفي للزاوية الشرقاوية غلب على نشاطها التدريسي العلمي؛ وإن كان من غير الممكن إنكار دورها في ملء الفراغ المحلي على المستوى العلمي، ونشر مبادئ الدين بمنطقة بعيدة عن مراكز العلم الديني، سيما في فترات الاضطراب الاجتماعي والفكري التي وسمت القرن(17م)، وتحديدا أواخر الدولة المرينية، لمّا هي ازدادت حدة الغزو المسيحي الصليبي على شواطئ البلاد وانتشرت الشعوذة والجهل والسحر واستشرت بالبادية مختلف صنوف البدع[51]. هنا لا يمكن إنكار إعداد الزاوية لنخبة من المكونين علميا، استطاعت إشباع نهمها العلمي والديني خارج أسوار أبي الجعد، مثلما فعل أبناء الشيخ أنفسهم.

ستعرف الزاوية فترة إشعاع كبرى لما استقرت الأوضاع في عهد الدولة العلوية، وتحديدا زمن حكم المولى إسماعيل ومحمد بن عبد الله أواخر القرنين(17و18م)، حيث عم الاستقرار السياسي الذي انعكس على النشاط العلمي والفكري في مراكزه الكبرى، دون أن ننسى مساهمات بعض المراكز القروية كالزاوية الناصرية بدرعة[52]؛ ويعود الفضل في نشاطها الديني والفكري إلى أطر علمية من أبنائها، كمحمد بن أحمد العروسي والد مؤلف المرقي الذي كان عالما وفقيها، وعبد الخالق بن محمد العروسي بن الشرقي بن عبد القادر بن الشيخ الشرقي الذي يعد أول من فكر في وضع تأريخ للزاوية[53] ومحمد بن المعطي أخ الشيخ محمد الصالح، وأبو عبد الله محمد بن داود بن عبد القادر بن الشيخ الشرقي[54]؛ بالإضافة إلى الأطر العلمية التادلية[55] الكبرى ممن ليسوا من أبناء الزاوية،

(49) المرجع نفسه، ص 184.

(50) المرجع نفسه، ص 184.

(51) المرجع نفسه، ص 186.

(52) المرجع نفسه، ص 191.

(53) المرجع نفسه، ص 196.

(54) المرجع نفسه، ص 198.

(55) راجع بهذا الصدد: مصطفى عربوش، من أعلام منطقة تادلة وبني ملال، مكتبة الطالب، بني ملال، ط1991،1، ص، 245 و 247

كالعالم محمد بن عبد الكريم العبدوني مؤلف «اليتيمة»، وأبو علي الحسن المعداني مؤلف «الروض الفائح» والفقيه محمد بن يوسف الدلائيوالعافية الصومعي أستاذ الشيخ محمد المعطي والمحجوب الموساوي تلميذ الأخير وشيخ نجله محمد العربي[56]؛ وإلى جانب الأطر المحلية والجهوية، استقدمت الزاوية شيوخ وفقهاء زوايا أخرى للإقامة بها كما هو حال أبي عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماسي، كما دعت آخرين للزيارة والتدريس ونشر الفقه والتصوف، مثل أحمد بن فتوح أحد المتعلقين بزيارة الزاوية وشيخها محمد الصالح[57] والشيخ أحمد بن عبد القادر التستاوي الذي مزج بين العلم والتصوف، معلما وشيخا مربيا إلى جانب الشيخ محمد الصالح الشرقاوي، ومحمد الصغير الإفراني الذي بدأ بأبي الجعد قسما من مؤلفه «النزهة»، لمّا هو كان مقيما بها ومترددا بين الحين والآخر على شيخها آنذاك محمد الصالح الشرقاوي[58].

دأب شيوخ شرقاوة على إقامة ندوات وتهيئة حلقات علمية كبرى، يستدعى لها كبار علماء وفقهاء العصر أو يتم اغتنام فرصة زيارة أحدهم للزاوية أو مروره منها[59]. ومن المهم الإشارة إلى قوة تأثير هذه الحلقات في محيطها الاجتماعي القروي القصي عن المراكز المهمة كفاس ومراكش؛ بهذا ساهمت الزاوية عبر مختلف هذه الأنشطة العلمية الدينية، بقسط مهم للغاية في نشر الثقافة الإسلامية وبث تعاليمها بمنطقتي تادلا ووردیغة؛ كما مكنت الطلبة بهما، من تحصيل المعارف المختلفة ونشر الطريقة___ الصوفية السنية الجزولية.

غير أنه ينبغي القول، إن الثقافة الدينية ومن ثمة الدين كممارسة، يطرح سوسيولوجيا مشكلة حقيقية في علاقته بأشكال المعتقدات التي تختلف عنه أو تتلبسه، لهذا نؤكد أن أي محاولة «تهدف إلى فصل ما هو ديني عن باقي أشكال المعتقدات الأخرى

---

و249 و 254.

(56) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 198 و 199.

(57) المرجع نفسه،ص 200.

(58) المرجع نفسه، ص 203.

(59) المرجع نفسه، ص، 209.

تقتضي معرفة مسبقة بما يعتقده الناس بصورة دقيقة»[60] يزداد الأمر استشكالا كلما أدركنا أن هذا الدين بوصفه ممارسة مجتمعية، يوجد بين ثنايا الفعل الاجتماعي؛ لأن المعتقد يبقى في مجمله ضمنيا وثاويا وراء الممارسات التي تحركها التصورات المشتركة التي كثيرا ما تنسب إلى الدين وهي ليست منه في شيء، دون أن تفقد جزء كبيرا من القداسة التي تعطيها طابعا متعاليا – بالمعنى الذي يصفه إميل دوركهايم[61] – بل إن تجاوزها أو الابتعاد عنها يصبح بمثابة الابتعاد عن المقدس الذي يجسد سلطة الإكراه المجتمعي[62].

إن الدين، وفقا لهذا المنظور، لا يمكن التعامل معه داخل المجتمع بعيدا عن عناصر ورموز تستوجب التحليل وتطرح نفسها كقضايا اجتماعية وثقافية[63]. هاهنا تطرح ضرورة الفصل بين الدين الرسمي والدين الشعبي[64]؛ فلئن كان الصنف الأول يحدده التشديد على النصوص وغياب الوساطة بين المؤمنين وربهم، فالصنف الثاني يقوم على التدرج في علاقة المؤمن بربه مرورا بالأولياء والأضرحة والمزارات[65]. فبسطاء المؤمنين لا يدركون الله في تجرده التام ولا يفهمون من التعاليم الدينية بُعدها المتعالي[66]، لهذا يجتهدون لتجسيدها حتى تصير أكثر جلاء ووضوحا؛ وعليه فاختلاف الإسلام الشعبي والإسلام الرسمي، لا يفيد قطعا عدم التقائهما أو ارتباطهما، ماداما يلتحمان داخل مجموعة من المؤسسات كالأضرحة والزوايا[67].

---

(60) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ص 42.

(61) E. Durkheim. Les Formes élémentaires de la vie religieuse : Le Système Totémique en Australie. PUF. 4ème Ed.. 1960. p. 399.

(62) عبد الهادي أعراب، المرجع السابق الذكر، ص 141.

(63) إن ارتباط الدين والمقدس بشكل عام، بمجموعة من الرموز الثقافية لا ينبغي أن يصل بها حدا من الشساعة يفقد فيها المقدس جوهره الأساسي كما يؤكد M. Eliade، لأنه لا بد من توفر حدود لدائرة المقدس، وقوفا عند العناصر المقدسة:
Mircea ELIADE. Traité d'Histoire des Religions. éd. Payot. Paris. 1970. p. 16.

(64) إن السوسيولوجيا المغاربية حسب «جاك بيرك» مدعوة في مجال الدين، إلى ضرورة فهم أشكال الخلط والالتباس الذي يميزه، وذلك بضبط موقع المقدس في المجتمع، وكيف ينتظم مع اللاديني. فقد لاحظ أنه بالمغرب تحديدا، يشتد ذات الالتباس وتتعمق الازدواجية بين الإسلام الرسمي والمعتقدات الشعبية القديمة :
J. Berque. Structures Sociales du Haut Atlas. 2ème éd. PUF. Paris. 1978. p. 172.

(65) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السابعة، بيروت 2001 ص 258 – 259.

(66) حليم بركات، المرجع نفسه، ص 259.

(67) انظر ما قاله أيكلمان بصدد إسلام الزوايا في مؤلفه: الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ص 79.

## المجال الاجتماعي للزاوية الشرقاوية ونفوذها:

## تفاعل الزاوية مع محيطها القبلي

مثلت البادية وقبائلها المحيطة المجال الخصب لبلورة نشاط الزوايا، لوجودها خارج الاهتمامات الرسمية المباشرة من الناحية الدينية والثقافية مقارنة بالمدن الكبرى؛ الأمر الذي عمق تأثيرها الاجتماعي والثقافي بهذا الوسط القبلي.[68] فمنذ البدء -كما أكدنا- راهن الشيخ المؤسس على خلق مركز ديني وعلمي يمكنه من منافسة الزوايا المجاورة، مستقطبا أكبر عدد من القبائل تجد في الزاوية وصالحها ما يلبي حاجياتهم الدينية والمعتقدية ويجسد تصوراتهم وإحساساتهم[69]. فإلى أي حد وفق في استقطاب القرويين وجلب اهتمامهم لصنف المعتقدات والممارسات الدينية؟

سيكون الجواب ناقصا ما لم نستحضر أهمية الكرامة والبركة كمفهومين تعتمد عليهما أي عملية استقطاب من قبل الزاوية؛ فالولي الصالح صاحب رأسمال رمزي، تجسده سلوكاته التي تحمل مجموعة من المناقب الفاعلة والخارقة للعادة والمألوف، فتهبه إمكانيات تميزه عن غيره من العوام وتؤهله في موقع آخر للعب دور الوسيط.[70] وبالتوقف عند الميتولوجيا الدينية المحلية، نجدها تحمل حكايات وملاحم تبين شدة الاتصال ما بين الزاوية والأتباع من القبائل، بناء على البركة والكرامة، وهو ما تجسده بوضوح ألقاب الشيخ محمد الشرقي العديدة مثل: «قنديل تادلا- سلطان الصالحين-صاحب الجمهور – مول (صاحب) النوبة والدور...»الخ.

وبالنظر لأهمية وردیغة والشاوية بالنسبة لمجموع نفوذ الزاوية، وموقعهما كمجال لعبور قوافل التجارة (ق18م) تحديدا، فقد اهتم شرقاوة بتأمين مرور القوافل منهما عبر مواقع للحراسة والخفارة سواء في اتجاه البيضاء/أنفا أو الجديدة /البريجة و آزمور. من هنا بسطت نفوذها إلى غاية الحوزية وأولاد فرج بدكالة[71]، بل يعود لها الفضل

(68) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص، 12.

(69) المرجع نفسه، ص 13.

(70) المرجع نفسه، ص 14.

(71) المرجع نفسه، ص 58.

في عقد التحامات وثقى بين دكالة والشاوية وتوطيدها بين الحين والآخر:»معرفة الشاوية مايا ومرعايا»[72]؛ يشهد على ذلك مثلا أنه إلى اليوم توجد بدكالة مزارات شرقاوية كلالا منانة الشرقاوية (أولاد عامر) وسيدي البغدادي الشرقاوي (أولاد بوعزيز)؛ ومازال خدام الزاوية البوعزيزية من دكالة لما يزورون مولاي بوعزة يمرون عبر ضريح محمد الشرقي لإيمانهم الشديد بالمقولة: «إن ما يمنحه الشيخ أبي يعزى يزيله الشيخ الشرقي وإن ما يعطيه هذا الأخير لا يزيله أحد»[73].

وفي مقابل تحصيل بركات شيوخها وسائر وظائفهم سابقة الذكر، تتلقى الزاوية مجموعة من الموارد المالية والمادية العينية في صيغة: فتوح وصدقة وهدية وزيارّة أو «المعروف» الذي يجمع في فصلي الصيف والربيع إلى جانب الذبائح المختلفة؛ أما من المخزن فتحظى بإنعامات مهمة كالتنازل عن أراضي وأملاك ومداخيل الضرائب، إضافة إلى ظهائر التوقير والاحترام. في هذا السياق يقدم لنا أيكلمان صورة عن نفوذ الزاوية الكبير في عهد مقدمها الشيخ العربي قائلا: «عندما يقوم سيدي العربي بزيارة المناطق الأخرى يعطي الأوامر والإرشادات لعمال لمخزن الموجودين بالمناطق التي يزورها، كما يتلقى من السكان الهدايا والصدقات، وتسعى إليه متلهفات لاستشارته والأخذ بنصحه، وتتبع الولي في تحركاته جماعة من الفقراء يتغنون بمدحه، ولا يسافر سيدي العربي إلا وهو محاط ببطانة من الأعوان مسلحة ومستعدة للدفاع عنه بسلاحها في سبيل الله ...»[74].

وينبغي التأكيد على أن نفوذ الزاوية لم ينحصر في مجالها المحلي، بل امتد إلى مناطق أخرى عبر علاقات وثيقة بأطراف مختلفة، منها زوايا مجاورة وبعيدة في سياق التواصل الصوفي كتقليد يربط اتباع الزوايا ومريديها، ويمتن فيما بينهم العلاقات والوشائج القائمة. فعلى المستوى الجهوي مثلا، تواصل شرقاوة مع صلحاء تادلا كزاوية أبي يعزى يلنور، وزاوية الصومعة بمدينة داي/ بني ملال حاليا، حيث أسرة الشيخ أحمد بن أبي القاسم الصومعي التادلي[75]، ومع الزاوية الدلائية التي هي بدورها جزولية

(72) المرجع نفسه.

(73) المرجع نفسه، ص 61 و62.

(74) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول،م،س،ذ، ص.59.

(75) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول،، ص 161 و162.

وشاذلية الطريقة، بالرغم من أن التنافس بينهما سيكون سمة لمراحل لاحقة، خصوصا بعد انهزام الشيخ محمد السعدي وارتفاع مكانة الدلائيين وإخفاق مكانة الشرقاويين. أما على المستوى الوطني، فتم الاتصال بالزاوية الناصرية بتامكروت (الأطلس الكبير) ليبلغ قمته في عهدي الشيخ محمد المعطي الشرقاوي ومحمد الصالح الشرقاوي وأحمد بن ناصر[76] ولا ننسى أيضا، الاتصال بالزاوية الفاسية ومؤسسها الشيخ أبو المحاسن يوسف بن محمد بن يوسف الفهري الأندلسي[77]. ومع جهود الشيوخ في تعميق مكانة زاويتهم، تعاظمت شهرتها بمجموع القبائل المجاورة كالأطلس المتوسط وادخسان/ خنيفرة، وصولا لأهم السواحل كدكالة وعبدة، بل بلغت حواضر الشرق الإسلامي؛ غير أن توسعها الديني – الصوفي كان السبب في إحراج كبير للدولة المركزية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بالنظر إلى الإمكانيات المادية والبشرية التي صارت لها في عهد شيخها محمد العربي أحد أحفاد الولي الشيخ المؤسس[78].

ولئن سلمنا بالانتماء العمري (نسبة إلى عمر بن الخطاب) الذي يؤكده مؤرخو الزاوية[79]، فمن الواضح أنه أهّلها أيضا للعب أدوار حيوية بسهل تادلا، لأهمية إيديولوجية النسب في عهد الدولة العلوية كإحدى الركائز الجديدة لإضفاء المشروعية على السلطة؛ من هنا نستطيع أن نفهم المواجهة بين الدولة والزاوية، لتوظيف هذه الأخيرة إيديولوجية النسب العمري مقابل الانتماء العلوي للدولة واعتمادها مسألة الشرف؛ ولعل ما يؤكد هذا التوظيف للنسب الشريف[80]، أنه في عهد الشيخ المؤسس محمد الشرقي لم يكن النسب

---

(76) المرجع نفسه، ص 168.

(77) المرجع نفسه، ص 172.

(78) المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 29 و30.

(79) تؤكد بعض المصادر أن نسب الشيخ محمد الشرقي عمري خطابي، بينما تؤكد أخرى أنه من قبيلة بني جابر العربية الهلالية التي استوطنت تادلا؛ ومن الواضح أن الانتماء العربي إلى جانب الصلاح، ساعداه في بناء قاعدة اجتماعية مثلت مجال نفوذه على القبائل التابعة لزاويته، وهي: ورديغة وبني شكدال وبني زمور وبني عمير وقبائل الشاوية وقبائل الدير التادلي؛ ينضاف إلى ذلك مصاهرته لقبيلة بني ملال وبني عمير. وبالتوقف عند أسطورة تأسيس الزاوية التي أوردها أيكلمان، نجدها تتضمن العلاقات الدموية القوية التي أنشأها محمد الشرقي مع كل هذه القبائل من تادلا العليا والسفلى: أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 31 و 46.

(80) بالنظر لما للنسب من أهمية في مغرب القرن 18و19م، اعتبرت قبائل ورديغة نفسها سليلة عمر بن الخطاب مثل أولاد بحر (الصغار والكبار) و أولاد سمير قياسا إلى قبائل أخرى لا تملك هذا الشرف كبني عمير وبني مسكين ؛ بهذا المعنى لم يقتصر توظيف هذا النسب على الزاوية وصلحائها. فالواضح أن بعض أنصارها بدورهم استغلوا قضية النسب لتأكيد الروابط الدموية بالقبائل المعروفة بالمنطقة، فجعلوا نسبها يمتد إلى النسب العمري الذي تعلن الزاوية الشرقاوية انتماءها إليه. أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 32.

العمري مطروحا[81] وإنما الانتماء القبلي والمشرقي عموما دونما تحديد[82].

بعيداً عن هذا التوظيف الإيديولوجي للنسب، نؤكد أن من أهم نتائج الحضور الصوفي للزاوية الشرقاوية، أن ظل محيطها القبلي متمسكا بالتعاليم الدينية الإسلامية، محافظا على استمرارية وحيوية معتقداته الدينية مقارنة بقبائل أخرى باتت فيها الشعوذة والفساد الأخلاقي واقعا مستشريا[83].

## الأدوار الاجتماعية للزاوية

اضطلعت الزاوية الشرقاوية بمجموعة من الأدوار الاجتماعية الحيوية منها:

الإيواء: ويمثل وظيفة ثابتة، هيأت لها مرافق لصالح الزوار والوافدين[84]؛ وينبغي القول أن الإيواء لعلية القوم من الوافدين علماء وموظفين، كما لغيرهم من البسطاء، فلكل مقامه وإيواؤه[85]، لهذا الغرض خصصت الزاوية منازل مجاورة تفي بالمطلوب. فمنذ تأسيسها، كانت الزوايا الملجأ المفضل للمسافرين والأجانب والقبلة المغربية للغرباء وضيوف الطريق ومختلف مريدي الطرق الصوفية «الفقراء»[86]، وامتدت حمايتها للفارين أيضا من بطش المخزن ونفوذ السلاطين. يتعلق الأمر في الثقافة المغربية بمكان حرم كالمسجد والمقبرة، من دخله فهو آمن ومن احتمى بضريحه فهو آمن أيضا، مثلما كان يحدث مع ضريح مولاي إدريس بفاس[87]؛ غير أن كانت مساهمتها في عملية الاحتماء زجت بها في صراعات قوية مع المخزن، خصوصا لما كان المحميون من المتمردين

---

(81) لم يحدث أن اتكل الشيخ المؤسس على نسبه دون عمل، عاملا بما أكد من بعده حفيده محمد الصالح:»إن الاتكال على النسب دون العمل كالتصوف بلا علم، كلاهما مكر وخديعة»(أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 168).

(82) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص31.

(83) المرجع نفسه، ص 57.

(84) عبد الرحيم الورديغي، تاريخ ورديغة وأخبارها البليغة(601هـ___1193/1423___2002 م) فيديرانت، ط1، الرباط ، ص 17.

(85) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص161 و162.

(86) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص 86 و 87.

(87) أنظر: أحمد التوفيق، ص 439 و 440، وأيضا:

P. Pascon. le Hauz de Marrakech.T. 1. Centre Universitaire de la Recherche Scientifique. Rabat. 1983. p. 255.

على سلطته أو الرافضين لأداء الضرائب[88].

الإطعام: وهو بحق من الوظائف الأساسية ذات الحمولة الصوفية الخالصة، فالزاوية باستمرار مأوى للمارة والمستجيرين من الزوار وعابري السبيل والمقيمين على السواء، وعلى غرار الإيواء يراعى فيه مكانة الضيف وأهميته؛ ووفقا لما ذكره مؤلف اليتيمة عن الإطعام أيام الشيخ محمد الصالح يقول: «كان يطعم كل من وفد عليه من العامة والخاصة، وخاصة الخاصة مثل الأشراف والعلماء والقُواد وأعيان القوم...»[89]؛ ولا حاجة للتأكيد بأن الإطعام صنف من الخدمة التي دأب شرقاوة على تقديمها لزوار زاويتهم ووفودها، كما أنه يختزن دلالات الإكرام والسخاء الصوفيين؛ فالولي لا يشكو خصاصة وجوده لا تحده حدود؛ إنه يأخذ ليقدم للآخرين.

التمريض والعلاج: هنا تستحيل الزاوية إلى قبلة للمرضى سواء بدنيا أو نفسيا، لما توافر لصلحائها من خبرة في العلاج بالعقاقير، أدركوها بعد فترة من التحصيل والدراسة نظريا وعمليا، تنضاف إليها بعض المهارات الخاصة كصنع الأحجبة والتمائم الوقائية لدفع العين الشريرة أو لطرد السحر أو مس الجن أو لجلب الخصوبة واليسر... الخ.

طلب الغيث: وهو ما يقع عادة في أوقات الجفاف، إذ تطلب القبائل نزول المطر من الزاوية مستنجدة بأسماء صلحائها الكبار أو محتمية بقبورهم، أملا في انعتاق البهائم والدواب و قطعان الماشية[90]؛ وأحيانا باستدعاء أحد أبناء الشيخ أو ذريته واستقدامه إلى منطقة بعينها طلبا للغيث ومباركة محصولها الزراعي.

التوسط بين القبائل: هنا نكون بصدد أدوار الصلح والتحكيم، فكثيرا ما لعبت الزاوية دور الحكم الفصل بين القبائل التي تقع تحت نفوذها، سواء فيما تعلق بنزاعات الأرض الكبرى أو غيرها من النزاعات البسيطة التي تقع بين الأزواج من طلاق وتوزيع

(88) نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، البيضاء2001 ص118.

(89) محمد بن عبد الكريم العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، ص 61.

(90) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 19.

الميراث، وصولا إلى ملفات تتصل بتقديم المجرمين والمذنبين، مثلما اضطلعت أيضا بدور الصلح بين القبائل وصنع الأوفاق والتحالفات و«الطاطا»[91]. وينبغي القول: إن هذه الأدوار كانت تحد من التمزقات القبلية في فترات السيبة أو لمّا تكون الأحكام المخزنية معطلة[92]؛ فقد دأب شرقاوة على المصالحة بين تامسنا وتادلا ودكالة؛ متوسطين باستمرار لضمان استقرار الأفراد والجماعات[93]. وبالمقابل فهي مناسبات يرسخون فيها مكانتهم بين القسمات القبلية المتنازعة، فهم أهل «الضمان» بالنظر إلى نشاطهم الرعوي القائم على الترحال؛ إنه سياق اجتماعي مناسب يلعب فيه الصلحاء دورا حيويا من حيث تبادل المصالح والخدمات فيما بين القبائل وعقد الاتفاقات والتحالفات المهمة[94].

أدوار اقتصادية: إلى جانب الأدوار الاجتماعية، اعتبرت الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد مركزا لتبادل المصالح الاقتصادية/ التجارية بين القبائل (سلع البادية) أو للاستفادة من تجارة المدن[95]. فبها تباع الحبوب بثمن أقل، بفضل ما لـ «أمراسها»(مخازنها) من أهمية بالغة في تمويل حاجيات القبائل المجاورة من الحبوب في فترات القحط، كمرس «أولاد خلّو» الذي لازال موجوداً بساحة السوق القديم لمدينة أبي الجعد. ولفترات طويلة ظلت الزاوية المخزن الجماعي للحبوب بالنسبة للقبائل[96]، والحرم الذي يمنع الاقتتال داخله، وإليه يفد زعماء هذه القبائل و «المسؤولون المخزنيون للاستجارة(..) ريثما يحصلون على الأمان من المخزن»[97]؛ كما ظل الشرقاويون عموما، المشرفون على حراسة النشاط التجاري لسوق الخميس الذي يحظى بأهمية كبرى داخل المنطقة، «إذ كان رجال القبائل يودعون سلاحهم عند مقدم الزاوية أو عند أحد أقربائه

(91) أحمد بوكاري،، الزاوية الشرقاوية خلال القرن 12هـ / 18 م، بعض جوانب نشاطها الاجتماعي والسياسي: المناهل، العدد 38، 1989 ص 236.

(92) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 14.

(93) المرجع نفسه، ص 23.

(94) المرجع نفسه.

(95) المرجع نفسه، ص 74.

(96) إن مخازن الزاوية التي تستعمل لحفظ الحبوب، هي نفسها التي كانت تخصصها بعض الزوايا لحفظ الدخائر والأسلحة التي يتم اقتناؤها بطرق سرية من بعض الدول الأوربية المجاورة؛ راجع تفاصيل هذا الدور الخاص في مقال: جوليا كلاني سميت:«الأولياء والمهديون والحرب: الدين والمقاومة في القرن التاسع عشر في شمال افريقيا، ص.107.

(97) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ص. 57. ويؤكد المؤلف أن الزاوية لعبت دور الوساطة لصالح المخزن أيضا، فقد كان سيدي العربي مثلا، يدعو الناس إلى الخضوع لسلطة المخزن والحفاظ على الأمن : المرجع نفسه، ص 59.

أثناء انعقاد السوق»[98]، كما لعبوا أيضا دور «الزطاطة» بحماية القوافل والأشخاص العابرين للمنطقة الواقعة تحت نفوذهم[99]؛ بهذا ساهموا في الحد من عواقب الانسياح القبلي من الجبل نحو السهل[100].

تسديد الديون عن أصحابها: أورد الباحث محمد بوكاري قصة عن المعداني، أن العلامة محمد ابن عبد الرحمان الصومعي، قدم على الشيخ مستنجدا: «علي ديون وثقل علي أمرها وخفت على نفسي الفضيحة من أربابها وتباع أملاكي في قضائها وليس لي غيرها. فصاح الشيخ وقال له: قف خلص الله عليك»[101]، كما عرف عن الزاوية أيضا تدخلها في تسهيل الديون لأصحابها أو إقراضهم إلى حين ميسرة.

وفي مستوى آخر، ساهمت للحظات خاصة من تاريخ المغرب، في امتصاص الغضب الشعبي لسياسة القسوة والاغتصاب وجمع الثروات التي ميزت سلوكات المخزن مع القرويين، وأحيانا أخرى سعت إلى تبرير هذه السلوكات[102]. وبالمقابل كان المخزن يعترف لها بهذه الأدوار المحلية، السياسية والاجتماعية والرمزية ويقرها من خلال «مظاهر الولاء والاعتراف والتقرب من طرف المخزن والرعية على السواء في شكل: «زيارات» أو «فتوحات» أو «إنعامات» مختلفة، تزيد من حجم الزاوية وأهميتها على المستوى الاقتصادي»[103].

## نظرات على حاضر الزاوية الشرقاوية :

## راهن الزاوية اليوم جزء من نكباتها وارتباك علاقتها بالمخزن

ليس واقع الزاوية المأزوم وليد اليوم، وإنما هو إفرازا لتراكمات بعيدة وأخرى قريبة؛ ففي القرن(17م) ضرب الوباء البلاد والعباد، فتخطف الموت عددا من ذرية

(98) ديل أيكلمان، المرجع نفسه، ص 62.

(99) المرجع نفسه، ص 62.

(100) أحمد بوكاري « الزاوية الشرقاوية خلال القرن 12هـ / 18 م، بعض جوانب نشاطها الاجتماعي والسياسي»، ص 235.

(101) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 21.

(102) أحمد بوكاري «الزاوية الشرقاوية خلال القرن 12هـ / 18 م، بعض جوانب نشاطها الاجتماعي والسياسي»، ص 235.

(103) المرجع نفسه، ص 237.

شيخ الزاوية وأصحابه فرحل إلى زاويته الجديدة مغادرا موطن الأولى[104] ومع تزايد نفوذ الدلائيين، زاد التضييق على زاويته ومراقبة أنشطتها، مما دفع عددا من أبنائه إلى الهجرة، فقد توجه مثلا عبد القادر بن أحمد البدوي شطر دكالة ووالده أحمد البدوي بن عبد السلام إلى وادي العبيد، وعبد الخالق بن عبد القادر نحو مراكش، ومحمد المفضل إلى سلا ...الخ. يتعلق الأمر بهجرات اضطرارية أربكت نفوذ الزاوية[105]، وعجّلت بتراجع إشعاعها العلمي بعد فرار أطرها ومعلميها، بالرغم من أن البعض اعتبر تشتت البيت الشرقاوي حمل شيئا ايجابيا للزاوية، بتوسيع ذكرها وانتشار ذرية شيخها عبرمجموع البلاد، سلا والرباط وأحوازها بالإضافة إلى تامسنا ومراكش والغرب ودكالة، ولا أدل على ذلك من انتشار قباب وأضرحة شرقاوة بمجموع البلاد.

إبان حكم المولى إسماعيل الذي دك الزوايا الأخرى سيما المناوئة منها لشرقاوة، ستسترجع الزاوية الشرقاوية سلطتها على الأطلس تحديدا مكتسحة نفوذ الزاوية الحنصالية[106]. لكن بوفاة المولى إسماعيل وما رافقته من اضطرابات سياسية خلقها المتنافسون على العرش والمطالبون به من أبنائه وكانوا كثرا[107]، تأزمت الزاوية من جديد بعد هجمات قبائل الأطلس على سهل تادلا وساكنيه في عهد الشيخ محمد المعطي، ووصل الأمر إلى محاصرة أبي الجعد نفسه من قبل أمازيغ الأطلس المتوسط مما دفعه إلى التوجه إلى القبائل المجاورة بالسهل والساحل كدكالة وعبدة[108]. وفي فترته دائما، تزايد التشكيك في النسب القرشي للزاوية، ولعله ما يفسر إسهابه الكبير في استعراض نسبه الشريف لمّا هو دون مؤلفه «الدخيرة»[109].

في مراحل لاحقة، ستعرف الزاوية أزمة عميقة، بتراجع أهمية مدرستها العلمية المعروفة «مدرسة الشرقي» التي كانت معلمة كبرى، لما تعرضت للتخريب في 1786-

(104) ويعرف موقعها برجال الميعاد، ولازالت آثارها إلى اليوم عند مدخل مدينة أبي الجعد قدوما من مدينة الدار البيضاء؛ أنظر التفاصيل: أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 100 و101.

(105) المرجع نفسه، ص، 110.

(106) المرجع نفسه، ص، 130.

(107) المرجع نفسه، ص، 135 و136.

(108) المرجع نفسه، ص، 139.

(109) دخيرة الشيخ المعطي عن: أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص، 148.

1785م، بعد أن ساءت علاقة الشيخ محمد العربي بالسلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله[110]، إلا أن أبعاد وتفاصيل هذا التخريب ظلت غير واضحة[111]باستثناء مسألة نفي الشيخ وأبنائه ومرافقيه إلى مراكش صحبة عدد من العلماء والشخصيات الوفية التي هاجرت معه[112]. ضاعف من هذا التراجع العلمي بروز زوايا مجاورة مثل «زاوية الحاج التاغي» بالشاوية (بجوار بن احمد) وزاوية محمد بن الصالح العميري بتادلا.[113] لتتفاقم حالة التردي بعد موت الشيخ العربي وتزامنها والظروف العصيبة لمغرب القرن 19م.

وفي القرن العشرين وتحديداً منذ بسط الحماية إلى بداية الحرب العالمية الثانية، عينت فرنسا أعيانها في مناصب السلطة، وجمدت مقدمي وصلحاء الزاوية بالنظر إلى ما كانوا يقومون به في الماضي، فبرزت منهم أجيال جديدة لا تعتمد الصلاح سبيلا لتأكيد قيمتها ووجاهتها، بل فضلت الانخراط في صفوف الحركة الوطنية[114] حاصدة رصيدا رمزيا جديدا ومخالفا. غير أن ذلك لم يمنع الزاوية من الاستفادة من دورها في تهدئة القبائل المتمردة ضد فرنسا؛ من هنا سعت هذه الأخيرة إلى تعيين قُواد

(110) تؤكد مجموعة من المصادر أن الشيخ العربي كانت له أملاك شاسعة وثروات واسعة ضاهت أملاك السلطان، لذا اعتبر هذا الأخير أن وضعية الزاوية باتت تشكل تهديدا لسلطته: ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ص57. أما المؤرخ المغربي الضعيف الرباطي مثلا، فيفسر الحادث بإيواء الزاوية لخصوم المخزن الفارين من قبضته، لكن من الواضح أن توسع نفوذ الزاوية وامتداد شهرتها وقوتها الاقتصادية، كان السبب الحقيقي لهذه الحملة التخريبية العنيفة.

(111) أورد الضعيف الرباطي:«ودخلت عليهم المحلة بعد أن هرب الجل منهم في الليل، فنهبوا ديارهم وفتكوا بنسائهم وسبوا بناتهم وجعلوا منهم مالا عظيما..»: أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 157. أما الناصري فيذكر ما يلي: «نزل السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الزاوية في رحلته من رباط الفتح إلى مراكش، إذ جعل طريقه عبرها (...) فأمر – على ما قيل –بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي المذكور وعشيرته إلى مراكش فأسكنهم بها» : الناصري، الاستقصا... الجزء السابع، ص 78. أما صاحب اليتيمة (العبدوني) وبعيدا عن تفاصيل الحادث، ففسره وغيره من الفترات العصيبة التي مرت بها المنطقة بما فيها أبي الجعد موطن الزاوية وما تعرضت له من هدم وتخريب لمرات متكررة من طرف السلاطين العلويين، بزعامة ورديغة التي دفعت الكثير من الفارين والهاربين من ضغوط المخزن العلوي وكذا اللاجئين إلى الاحتماء بأهلها وبزاويتهم.: محمد بن عبد الكريم العبدوني، اليتيمة... ص 305.

(112) لم يعد الشيخ إلى زاويته من مراكش إلا بعد عشرين سنة، مشجعا من قبل المولى سليمان الذي قدم له منحا وهبة لبناء «جامع الزاوية» و«مدرسة جامع مولاي سليمان» الشهير بالمدينة. كانت هذه نقطة صلح وإعادة ترتيب أوراق الزاوية ونشاطها العلمي، لكن يبدو أن اختفاء المدرسة الأولى «مدرسة الشرقي» وما لحقها من تخريب لن يعوضه مدرسة جامع سليمان. وبالرغم من أن الزاوية عرفت فترة قوة في عهده، فانه حدث أن تعرضت وبأمر منه قبائل ورديغة وتادلا إلى عنف وتقتيل بلغ من البشاعة حدا كبيرا، تأديبا وعقابا لإيوائهم وحمايتهم أشخاصا فروا من المخزن؛ مما يبين بالملموس طبيعة العلاقة غير القارة بين الزاوية والمخزن بالمغرب: أنظر أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 178 و179. وأحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، م،س،ذ، ص. 237.

(113) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الأول، ص 238.

(114) المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص 113.

وباشوات وموظفين كبار من أسر شرقاوية على سائر منطقة تادلا وصولا إلى حدود زيان بالأطلس المتوسط[115].

ستعقب هذه الفترة، مرحلة أخرى امتدت من 1939 إلى ما بعدها، واتسمت عموما بعمليات إضعاف النظام التقليدي من قبل فرنسا المعمرة___ التي بدأ هي الأخرى نفوذها يتراجع___ هنا تعرضت الزوايا، رجالاتها ومعتقداتها للهجوم والتشنيع والتسفيه من قبل علماء وفقهاء العواصم الحضرية؛ وبفعل جهود الحركة الوطنية، التحمت الهوية الدينية/الإسلامية بالهوية الوطنية التي حملتها ضد الزوايا لإضفاء المشروعية على حركتها وإلباسها لبوسا دينيا جديدا «الوطنية»[116].عجّل هذا التراجع ببروز بورجوازية متعلمة انضمت إلى صفوف العلماء المتشبثين بالنص القرآني والسنة؛ فصارت الوجاهة التي كانت تقتضي فيما مضى الارتباط بالزاوية، الابتعاد عنها والارتباط بمدار رهانات جديدة كالتعليم العصري والانخراط في صفوف الحركة الوطنية والأحزاب السياسية التي نتجت عنها.

لقد اعتبرت هذه النخب السياسية الوطنية أن الإسلام الشعبي أو المجتمعي الذي تمارسه الزوايا والطرقية؛ مظهر قوي من مظاهر التخلف، لأنه بات في نظرها لا يمثل إلا عناصر مشوهة للمعتقدات الحقيقية للإسلام النقي والطاهر[117]، أو على الأقل كما تصوره علماء المدن والعواصم الكبرى مثل فاس[118]. ولا يخفى على كل باحث أو مهتم أن شدة الاعتراض على معتقدات الزوايا من قبل النخب السياسية والوطنية، لا يمكن فهمه إلا في سياق الصراع الدائر بين الطرفين، في السر أو العلن، ولئن كانت النخبة الوطنية تعترض على النموذج التديني القروي أو «إسلام البادية» وتعتبره ملمحا من ملامح التخلف[119]، فالواضح أنها تنسى حضور معتقدات مماثلة في المدن والحواضر

(115) أنظر:عبد الرحيم الورديغي، تاريخ ورديغة وأخبارها البليغة(601هـ___1193/1423___2002 م)، فيديرانت، ط1، الرباط ، ص 100 و105.

(116) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص، 114 و 115.

(117) نور الدين الزاهي: الزاوية والحزب، ص 130.

(118) اعتبر المصلحون أن من مهامهم تطهير الدين وتنقيته من الشوائب التي تلبست به، مقارنة بالصلحاء، وشيوخ الزوايا الذين نظر اليهم بأنهم بربروا هذا الدين وحافظوا على محليته المتميزة.

(119) نرفض القول بأن الإسلام الشعبي مصدر تخلف المجتمع بالشكل الذي تطرحه النخبة السياسية الوطنية على الأقل، لأن التخلف

ذاتها. فها هو بيير بورديو يؤكد أن «إسلام المدينة ليس خاليا من العناصر «غير الطاهرة» فحتى إسلام المدن لا يخلو من المعتقدات الطبيعية ومن الاعتقاد في الجن وتقديس الأولياء»[120]. كما أن العودة إلى التاريخ، توضح لنا أن «الإسلام الذي حظر كأساس لحركية الزوايا والذي ارتكزت عليه النخبة لأجل محاربة الزوايا وتطهيره مما علق به من تشويهات، هو نفسه الإسلام الذي ارتكز عليه الصلحاء في القرن السادس عشر»[121]؛ هنا تبدو المغالطة التي تفضح السبب الجوهري للصراع القائم بين النخبة والزاوية، فقد كان التخوف واضحا لدى الأولى في تعاملها مع الثانية لأنها تنافسها في مقومات كثيرة، منها مجابهة الاستعمار والقوى الخارجية لذا عملت باستمرار على الاختفاء والاحتجاب وراء الدين دون أن يمنعها الأمر من استدعاء البعد الديني نفسه لمحاربة الزوايا كقطب منافس[122].

## أزمة الصلاح الصوفي وأفول إيديولوجية الزوايا

لمس ديل أيكلمان أن بعض الشرقاويين ابتعدوا عن إتباع سبيل آبائهم وأجدادهم في الارتباط بالزاوية ومعتقداتها مستحضرين عناصر الإسلام الإصلاحي؛ لكن مع ذلك يبقى هذا السلوك امتدادا لأجدادهم شرقاوة في نظر الأتباع والمريدين، والدليل حضورهم للاجتماعات الدينية كل جمعة لقراءة الأوراد. غير أنه من الواضح أن تراجع عدد الأتباع والخدام، قد أدى وبالتدريج إلى تقلص القاعدة الاجتماعية للزاوية، مما أثر بشكل كبير على إيديولوجيتها[123] في العقود الأخيرة، بل إن أتباعها اليوم يوقنون بأن معتقداتها تنافسها اليوم أشكال أخرى وتصورات جديدة مخالفة تماما.

إن إيديولوجية الزوايا التي استندت إلى بركة الأولياء والمشروعية الدينية التي يمثلها ورود ذكرهم في النص القرآني، وتعمقها الشرعية «الدينية المجتمعية» التي تجعل

---

مصدره تركيبة المجتمع ككل، وليس مصدر تخلفه هي البادية أو نوع إسلامها.

(120) Pierre Bourdieu. Sociologie de L'Algérie .PUF ،1974، p 102

(121) نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب، ص 132.

(122) المرجع نفسه، ص 137.

(123) لضبط إيديولوجية الزوايا، عمد أيكلمان إلى مفهوم البركة وربطه مع الأنماط السائدة في البنية الاجتماعية، من هنا ميز عمليا بين إيديولوجيتين: الأولى تهم الصلحاء والثانية تخص الخدام والأتباع: ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ص 48.

منهم وسطاء بين الله والناس؛ لم تعد قائمة بنفس القدر الذي كانت عليه في الماضي. تشهد على ذلك الوضعية المتدنية التي صار يعيشها الولي/مقدم الزاوية الحالي (الحاج محمد) رغم جهوده الكبرى في الرفع من أسهم رأسماله الرمزي الذي تأسس على رصيد الأجداد؛ فقد صار مضطرا «للعيش على المداخيل التي يجمعها من الزائرين، والتي لم تعد كافية خاصة بعد أن قطعت كثير من الفرق القبلية علاقاتها به وخفض من ظلوا متصلين به من قيمة هدياهم وحجمها»[124]. يميط هذا الوضع اللثام عن النصيب الهزيل لهذا الولي المتأخر من البركة، خلافا لسلفه الذين مكنتهم بركتهم اللامحدودة من إتيان الخوارق والعيش الكريم المنعّم . إن الخلف اليوم يعجز عن إتيان واحدة من خوارق أجداده، لهذا اعتبر ديل أيكلمان أنه صار على هؤلاء «الأولياء الأحياء أن يعتمدوا كلية على عملهم الشخصي وعلى مدى نجاحهم فيه»[125].

من جهة أخرى، ساهمت مجموعة من التحولات الديموغرافية والاقتصادية والفكرية وتصدع الهوية الشرقاوية[126] في انسلاخ هذه الأخيرة عن معتقدات الزوايا والصلاح، وبالتالي بروز مجموعات شرقاوية عديدة تدعي انتماءها للشيخ المؤسس؛ مما أضعف محافظة هؤلاء جميعا على الروابط التي تجمعهم بالولي مقدم الزاوية، قياسا إلى الماضي لما كان شرقاوة عامة يحرصون على هويتهم كمجموعة سلالية مرابطية و «يقدرون الارتباط بمقدم الزاوية ويحافظون على علاقات الحق معه أكثر مما يفعلون اليوم (...) كان الجميع يحرص على الحفاظ على سمعة الزاوية وشهرة أفرادها بالصلاح»[127].

لقد أمسى واضحا اليوم، أن قدرة الصلحاء جد محدودة في المجالين الاقتصادي والسياسي وأكثر من ذلك فجهود البعض منهم في الرفع من مكانة الزاوية ورصيدها من الصلاح، صار مدعاة اعتراض وتأفف، خصوصا من قبل المتعلمين والمثقفين من أنصارها أو حتى من المتعاطفين مع رصيدها الكبير في الماضي. نعم، ولّى الزمن الذي كانت فيه

(124) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ص 73.

(125) ديل أيكلمان، المرجع نفسه، ص 74.

(126) لمس أيكلمان أن «تشرقاويت»كتلخيص للهوية الشرقاوية، عرفت تراجعا كبيرا في العقود الأخيرة، رافقه بشكل مواز تضاؤل رصيد الصلاح الصوفي؛ من هنا باتت هذه الهوية الشرقاوية إحدى مخلفات الماضي: ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ص 108.

(127) ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، ص 107.

المعرفة الدينية التي تمثلها الزوايا بتصوفها الشعبي تحاط بهالة كبرى، وينظر إليها كأسرار تنتقل من شخص إلى آخر عبر علاقات الدم والقرابة[128] – في سياق تنظيمات داخلية هرمية ترتب العلاقات فيما بين أفراد يملكون الصلاح وآخرين لا سبيل لهم في الوصول إلى قدر منه إلا عبر الارتباط بأحد الأولياء أو حفدتهم- إلى زمن مخالف، شهدت فيه معتقدات الزوايا وأنساقها الخاصة تراجعا سافرا؛ فعلى سبيل المثال، لم تعد الزاوية قادرة على التدخل في وضع حد للنزاعات والخلافات المحلية التي تقع بين الحين والآخر، باستثناء الخلافات البسيطة التي تحدث ما بين الأسر، بل إنه حتى هذه صارت في أحايين كثيرة تجد حلها لدى القائد أو بمخافر الشرطة أو الدرك. وأمام تقلص الأدوار الاجتماعية الكبرى للزاوية وتقلص المعتقدات الدينية المرتبطة بها؛ نجد أنه حتى الأتباع من البوادي الذين ارتبطوا معها بعلاقات ولاء وقرابة رمزية، صاروا أقل ارتباطا وأضعف ولاء واتصالا، يشهد على ذلك تراجع هداياهم وعطاياهم وكذا عدد الذبائح المساقة لضريح الزاوية.

ولئن هي كانت مكانة الزاوية وأهميتها الرمزية بإقليم خريبكة ووردیغة قائمة لفترات طويلة فإن النظر اليوم إلى علاقة هؤلاء القرويين بها، الأتباع منهم والزوار، يوضح أن دور شرقاوة بها تقلص في الوقت الراهن[129] عما كان عليه الحال في الماضي، حين لعبوا أدوارا كبرى فاقت بكثير ما صاروا يقومون به اليوم[130]؛ وبالرغم من أن تجديد العهد مع الولي ما زال واقعا يمارس كل سنة، لمّا تفد القبائل إلى أبي الجعد شهر شتنبر للتبرك والزيارة؛ وقبيلة السماعلة لم تنفك تحرص على طقس التعركيبة الشهير[131] بالجري وراء العجل والجذب أمام الضريح...؛ فإن عمق ولائها وارتباطها بشيوخ الزاوية الشرقاوية عرف اهتزازا بينا.

من هنا، فإن ظاهر حفاظ الأتباع والأنصار على أورادها الصوفية، لم يمنع

---

(128) المرجع نفسه، ص. 141.

(129) المرجع نفسه، الجزء الأول، ص 61.

(130) المرجع نفسه، ص 62.

(131) للاستزادة حول تفاصيل ورموز طقس التعركيبة الذي تختص به قبائل السماعلة مع ضريح أبي الجعد دون غيره من الأضرحة التي ترتبط بها، أنظر: ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الثاني، م.س.ذ، ص. 65 –66–67.

اليوم فروعا عديدة لزوايا وطرق صوفية أخرى كالبوتشيشية والدرقاوية والبوعزاوية... من أن تعمل بنشاط بمختلف القرى والحواضر، وهو ما توضحه معطيات الجدول أدناه:

الجدول رقم (1) :فروع الزوايا المتواجدة بإقليم خريبكة :

| مقدمها | اسم الزاوية | مقر الزاوية |
|---|---|---|
| محمد السعيدي | البوتشيشية | خريبكة |
| بوجمعة بلفقير | الدرقاوية | |
| محمد جداني | البوعزاوية | |
| أحمد مسطاري | التيجانية | |
| مصطفى غاني | البوتشيشية | وادي زم |
| الهمام الكبير | البوعزاوية | |
| المعطي زهراوي | التيجانية | |
| الشباني الكبير (متوفى) | القادرية | |
| عبد السلام شهراني | الكتانية | |
| الحبيب الناصري الشرقاوي | الشرقاوية | أبي الجعد |
| الحاج حمادي بن دادة | القادرية | |
| الحاج محمد حيمر | البوتشيشية | |
| المهدي المسكيني (متوفى) | الكتانية | |
| محمد بوزيدي | البوتشيشية | بولنوار |
| حوري | الدرقاوية | |
| سليمان جويشة | البوعزاوية | |
| عبد الله السفري | الناصرية | |
| محمد الملياني | الملیانية | أولاد بوغادي |

المصدر: وزارة الداخلية، عمالة إقليم خريبكة، قسم الشؤون الدينية 2005

وبالإضافة إلى ما سبق، اختفت اليوم بالزاوية الشرقاوية مدارس تعليم الفقهاء وحملة القرآن ولم تعد موجودة بورديغة عموما[132]، وهو ما يشهد على تراجع دورها العلمي الديني كلية عما كان عليه[133]، لهذا صار حفظة القرآن من أبناء الإقليم يلجأون إلى زوايا مجاورة كزاوية سيدي التاغي بإقليم سطات، أوسيدي علي بن إبراهيم بإقليم بني ملال، وهناك آخرون أسعفهم الحظ للتعلم بزوايا بعيدة كزاوية سيدي الزوين بضاحية مراكش أو بسوس (أولوز تحديدا) أو بقلعة السراغنة؛ فقد قادتنا مجريات بحثنا الميداني إلى تأكيد عينات من الفقهاء الممارسين، أن جل المستفيدين من تجربة التعلم بالزاوية كانوا تحديدا من الشيوخ والمسنّين، أما الأجيال المتوسطة والشابة، فاقتصر تكوينها على جوامع السفارة[134].

(132) انظر خلاصات الفصل الخامس من أطروحتنا: عبد الهادي أعراب «الفقيه كمؤسسة بالمجال القروي: دراسة لتغير مكانة وأدوار فقهاء الشرط بالمغرب، إقليم خريبكة نموذجا»، رسالة لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع، إشراف، د. المختار الهراس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة محمد الخامس – اكدال، الرباط 2007 .

(133) أكد أيكلمان في دراسته للزاوية الشرقاوية، أن المدرسة العلمية التي تحتضنها، تراجع نفوذها ودورها في بداية القرن العشرين، خصوصا بعدما انقطعت المساعدات المادية التي تتلقاها من مداخيل عزائب الزاوية، فمع سنة 1913 لم يبق بها سوى خمسة عشر طالبا، وعلى رأسهم فقيه غير شرقاوي : ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، م.س.ذ، ص. 78.

(134) السفارة أو التخنيش»، مرحلة أساسية في تكوين فقيه الشرط، فالأولى مشتقة من السفر والثانية من»الخنشة»، أي كيس الجوت الذي يحمله الفقيه على ظهره، متنقلا بين جوامع الدواوير والقرى، إلى أن يأنس في نفسه الاستعداد الكافي لمزاولة مهام الشرط. وقد تحدث «بلير» عن الطلبة المخنشين، واصفا إياهم بأنهم يسافرون من أجل العلم واستكمال حفظ القرآن:

E. M-Bellaire « L'enseignement Indigène … », op.cit. p. 427.

## خلاصة

نستطيع أن نستخلص من خلال العناصر التاريخية التي همت الزاوية الشرقاوية، أن إنشاءها استند إلى دعامة دينية طبعها التصوف كمرتكز ديني؛ دون إهمال الإطار القبلي الذي استقبل الصلحاء، وحدد ملامح انتشار نفوذهم وسلطتهم المادية والرمزية في سياق تفاعل الرأسمالين معًا الرمزي والمادي. كما أن الطموحات المادية والاقتصادية والسياسية أيضا، لم تكن بعيدة عن الرهان الكبير لهذه المؤسسة الدينية-الاجتماعية بمغرب القرنين(16و17)إلى غاية القرن(18م). في هذا الباب، يمكّننا استحضار إيديولوجية الزاوية من فهم قدرتها على احتواء النزاعات والتفاعلات القبلية وتوجيهها لصالحها، من خلال الابتعاد عنها أو التورط فيها مباشرة محتفظة بأدوار التحكيم والوساطة والصلح والمباركة ...الخ[135]. فقد بلغت إستراتيجية الحياد درجة كبرى في سلوكياتها، بتوجيه الأحداث وفق ظروف المنطقة ومعطياتها ومعطيات البلاد بشكل عام، وإن كان هذا الحياد لم يمنعها من التعرض لدائرة العنف(تخريبها في عهد سيدي محمد بن عبد الله وتعنيف أتباعها في عهد المولى سليمان). من هنا، فإن فهم ظاهرة الصلاح الصوفي، يقتضي استحضار كل هذه الرهانات وربطها بالواقع الاجتماعي والقبلي من جهة ثم بالسلطة المخزية والدنيوية على الأرض من جهة ثانية.

إن الصراع على النفوذ الرمزي ممثلا في الصّلاح، وما يذره من أرباح مادية، حكم على الزاوية بمواجهة زوايا مماثلة قريبة أو بعيدة. المخزن ذاته لعب لعبة مزدوجة مع الزاوية، يقرّبها منه بالإنعامات والهدايا وظهائر التوقير، مقابل أدوار الوساطة والتدخل لتهدئة القبائل والمشاركة في الحركات وإضفاء المشروعية عليها، لكن متى تعاظمت قوتها وتزايد خطرها، وهو ما كان يحرج كلا من الشيخ والسلطان معا، ينتهي التنافس دائما لصالح السلطان الذي يقلص من النفوذ المادي للأول أو يشكك في مشروعيته نسبه – كما حدث بالنسبة للشيخ محمد المعطي أو يقدم على تخريب الزاوية كما حدث مع الشيخ محمد العربي، لما هي صارت من القوة والنفوذ بما جعلها توشك أن تصبح مركزا مناوئا للمركز الأول. إن تاريخ الزاوية والمخزن إذن، هو تاريخ التساكن بين الإدارة المادية أو

(135) أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، الجزء الثاني، ص 191.

الأرضية والسلطة الروحية، تساكن وتعايش أو لنقل توازن مرغوب فيه[136] .

ختاماً نؤكد، أنه على الرغم من كل التوترات والنكبات والأزمات التي مرت منها الزاوية، فقد اجتهدت لفترات طويلة في تأطير أتباعها وزوارها ومريديها تعليما وتثقيفا ووعظا وإرشادا إلى جانب خدمات أخرى كالإطعام والإيواء والتوسط لطلب الغيث أو الاستمطار...؛ أو لتقليص أعباء التكاليف أو الإعفاء منها. إنها المهام التي جذرت مكانتها في محيطها القبلي وعمقت تماسك القبائل حولها من خلال تعاليم التصوف المشبع بمعطيات الثقافة المحلية، وذلك عبر نسق مشروعية قوي الامتداد والتغلغل بالمغرب. غير أنه وفي الوقت ذاته تشهد مجمل التحولات التي مست أدوار الزاوية اقتصاديا واجتماعيا وتعليميا، على تأثر نسقها الثقافي والإيديولوجي بمجريات الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي صار يعيشه الأفراد في الظروف الراهنة.

(136) المرجع نفسه، ص 193.